التعاون طبيعة فى الخليقة

بقلم الأستاذ العالم الجليل

محمود خاطر بك مدير التعاون فى وزارة الزراعة

من الأقوال البالغة المأثورة « أن الانسان مدنى بالطبع » يعنى أنه « اجتماعى بالطبع » والاجتماع لا ينتظم إلا بالتآزر والتعاون فهو لذلك « تعاونى بالطبع » وليس من الصعب أن أذكر لك المثل بعد المثل فى التدليل على ذلك ولكن الصعب أن أهتدى إلى مثل واحد أدلل به على وجود كائن فى الخلق غير مفتقر إلى سواه

روى أحد الفرنسيين فى تعريفه فضل التعاون أن زارعا جاءه فى منامه مغضبا وقال له: لن أزرع لك بعد اليوم فخذ أنت المحراث وهيىء به غداءك. وجاء النساج قائلا له: لن أنسج لك بعد اليوم فاعمل وحدك ما تريده لنفسك من لباس وجاء البناء يقول له. لن أبنى لك بعد اليوم مسكناً فأعده أنت وحدك. وجاءه كذلك كل من فى هذا المعنى ويزيد فاستيقظ الرجل مذعوراً من هول ما رأى ولكنه حين أبصر كل شىء حوله مستقرا فى نصابه حمد الله وزال ما كان قد اعتراه من الروع فى عالم الرؤيا.

وقرأنا فى كتب الطفولة حكاية الوالد المحتضر يضرب لأولاده مثل العصى المجتمعة لا يقوى على كسرها أحد فاذا ما تفرقت سهل على كل إنسان كسرها واحدة بعد أخرى. كما قرأنا حكاية الرجل الأعمى يحمل المقعد فيتولى المقعد إرشاد الأعمى إلى الطريق متعاونين بذلك على تيسير أسباب العيش لهما بعد أن كان كل منهما بمفرده عاجزاً عنها. إن كل فرد منا فى ذاته مثل ناطق من أمثلة التعاون الصحيح. أليست الروح تدب فى الجسد فتكون ثمة حياة بتعاونهما معا فاذا افترقا وبطل ما بينهما من تعاون مشترك زالت تلك الحياة وزال أثرها.

وهذا الجسم الانسانى لو تأملته وجدته ينطوى على أمثلة من التعاون عدة فكم من عامل فيه يتعاون على إمداده بالقوة وتمكينه من البقاء.

ولست أقف بك إلى تعاون الجسم الانسانى فى تركيبه بل أذهب بك إلى فضيلة التعاون

فى الحيوان و النبات وتكون العناصر فهى كلها شاهدة بضرورته فى الوجود.

انظر إلى جماعة النمل كيف تتعاون على بناء مساكنها لزمان الشتاء وكيف انها تجمع إلى هذه المساكن من القوت مايكفيها طوال أيامه و أنها لم تؤثر ولم ترض أن ينفرد كل وحد منها بشأنه فى ذلك . و انظر إلى جماعة النحل كيف تعطيك فى تعاونها من عسلها الشهى مالا تستطيعه الواحدة منها إذا عملت لحاجتك فى معزل عن جماعتها . فأنت أينما اتجهت وحيثما حللت لا تجد لهذه المخلوقات إلا الجماعات تلو الجماعات تعمل فى تعمل فى تعاون .

وتكون الحديقة تبهر النظر وتؤتى أطيب الثمر لايكون إلا بتعاون الشجرة مع الشجرة و الخميلة مع الخميلة كما تتعاون سنابل القمح على هيئة محصوله الوفير وكما يتعاون الزراع و الدراس و الدراس والعجان و الخباز على تجهيز أرغفة الخبز لغذائنا بعد أن تعاون قبلهم الصناع على إعداد محراثهم و نورجهم و مطحنهم و ما إلى ذلك مما هو فى حقيقته سلسلة من التعاون حلقاتها متصل بعضها ببعض.

وتلك هى القطرات من الماء التى تمطرها السماء رذاذا أتظن القطرة الواحدة منها تفعل مايفعله مجموعها فى انحداره بالاودية و جريانه بالانهر فينعم به الانسان والحيوان ويحى ميت الارض .

و فى أشعة الشمس عبرة كبرى للتعاون فانها وهى منثورة فى الافق لاتفعل فعلها إذا ما تجمعت بقوة العلم لتدير مختلف العدد وتشفي عاصى العلل .

و المقال الذى تقرؤه الآن ألم يتعاون فى سبيله كاتبه و مصححه و جامع حروفه و طابعه بعد أن تعاون فيه قبلهم كثيرون ممن أعدوا لهم آلات الطباعة وصنع الورق .

و ذاك التراث التعاونى الذى تغنى به فى كل ناحية والذى ندعوذ اليه من كل جانب كم امة وكم جيل تعاونوا على إظهاره لنا فى أنظمته الحاضرة .

وفى الكتاب الكريم : وتعاونوا على البر والتقوى و لاتعاونوا على الاثم و العدوان).

و فى الحديث الشريف : «الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» : وفى مأثور القول عن سيدنا على بن أبى طالب : « الناس بخير ماتعاونوا» .